دور الرواية الشفوية في تدوين تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء

أ/ وردة دهماص

جامعة الجزائر 2

ملخص:

لم يُعرف التدوين لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء قبل القرن السابع ميلادي، باستثناء بعض المناطق بشرق إفريقيا، حيث تأثرت هذه الأخيرة بالتجار العمانيين. لذلك بحث المؤرخون في ذاكرة الإنسان الإفريقي، ليجدوا ضالتهم في الرواية الشفوية.

يرى فليسيان شالي (Falsian Chali) أن الرجل الأسود يستطيع أن يعطي رأيه حول الذاكرة الصحية للتاريخ الإفريقي، عن طريق سرده للأخبار الماضية. وحسب جان فانسينا (Jean Vancena) فإن هذه الروايات من المصادر الأولية عن الشعوب الإفريقية التي لا تعرف الكتابة.

يعتبر البعض أن الرواية الشفوية تعتمد على الخيال مبتعدة كل البعد عن الحقيقة لتتحول إلى أساطير لا علاقة لها بالتاريخ، خاصة أنها مشبعة بالذاتية. غير أن كثيرًا من المؤرخين يعتبرونها مصدرًا أساسيًا لدراسة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

Résumé :

L'écriture de l'histoire de l'Afrique subsaharienne n'était pas connue avant le Septième siècle après JC, sauf Certaines zones à l'est de l'Afrique. Les commerçants d'Oman lui ont laissé des empreintes. C'est pour cela les historiens ont cherché l'esprit de l'homme africain, pour trouver leur ombre dans le récit oral.

Selon Falsian Chali, l'homme noir peut donner son opinion sur la mémoire saine de l'histoire africaine en racontant des histoires passées. Et selon Jean Vancena, ces récits sont des sources primaires de peuples africains qui ne savent pas écrire. Certains considèrent que le récit oral base sur la fiction, loin de la vérité. Ce récit devient une légende qui n'a aucune relation avec l'histoire. Il est saturé de subjectivité. Mais de nombreux historiens y voient une source d'étude essentielle pour l'Afrique subsaharienne.

مقدمة :

لطالما كان تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء قصة الآخرين، أي قصة التواجد الأوروبي، من الكشوفات الجغرافية إلى الاستعمار وما بعد ذلك. فكان الفكر الراجح في أوائل القرن العشرين أن إفريقيا ليس لها تاريخ لأنه لم يكن لديها وثائق مكتوبة قبل وصول الأوروبيين. في الحقيقة كانت هذه إشاعات، روج لها الاستعمار لكي يتسنى لها الإستيطان في القارة واستغلالها لعدة أسباب، كحاجته الى تموين وتمويل وتسويق. يعتقد بعضالمؤرخينأن الرواية الشفوية -استنادًا إلى ذاكرة الأشخاص - لا يمكن اعتبارها صادقة، بالنظر إلى أنهم سيسردونها بذاتية ، إضافة إلى أنها مع مرور الزمن

تعرض لتعديلات وتزوير مستمر. لذلك، فإنه لم يكن نقل الحقائق مخلصاً كما كان في المصادر المكتوبة. في حين يرى البعض الآخر أنها سرد وتناقل الأخبار بين العناصر الشعبية عن طريق سرد الحكايات من شخص لآخر، وأن الرجوع لها حتمية تاريخية في حالة غياب الشواهد المادية، كما هو الحال في إفريقيا جنوب الصحراء، فما مدى صحة هذه المقولتين؟

1. تعريف الرواية الشفوية:

يعرف معظم الباحثين الرواية الشفوية على أنها مجموعة التقاليد من أساطير ووقائع ومعارف ومذاهب وآراء وعادات وممارسات.⁽¹⁴¹⁾ غير أنه لمن يبحث في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء تعريف آخر، فبالنسبة لمن يؤرخ للقارة، سيجد أنها تلك الأخبار المتواترة عن أحداث تاريخية ماضية غير مدونة، يتناقلها الأجداد عن الأجداد، وتتداولها فئة خاصة من المجتمع الإفريقي يطلق عليها بصفة عامة لقب الجريوت " LES GRIOTS " بمعنى الرواة. ولكل شعب من الشعوب الإفريقية قبيل خاص يحتكر هذه المهنة، فنجدهم عند قبائل الماندينغ، مؤسسي مملكة مالي يقبون بالجلال، جمع جالي.⁽¹⁴²⁾ لا تقتصر الرواية الشفوية على المقابلة الشخصية فحسب، بل تمتد إلى كل الأشكال التعبيرية الأخرى، كالأغنية والحكايات المنقولة عبر الأجيال، وكذا الأمثال الشعبية والفلكلور والتراث عمومًا.⁽¹⁴³⁾

2. أسباب الإعتماد على الرواية الشفوية في تدوين تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء:

إن المتتبع للدراسات التي تناولت الشؤون الإفريقية يلاحظ بأن هناك إجحاف في حق ثقافة شعوبها خاصة ثقافة شعوبها خاصة تراثها الذي تعرض لشتى أنواع التهميش والتخريب والنهب والطمس. وكل ما تناولته هذه الدراسات هي عبارة عن شذرات من تاريخ عميق وطويل تعرض للتشويه من طرف الدول الإستدمارية.⁽¹⁴⁴⁾ من أسباب ضعف تقاليد الحفظ في تاريخ إفريقيا، هو ضعف الكلمة المكتوبة، ذلك أن كثيراً من المجتمعات الإفريقية لم تبدأ تعرف الكلمات المكتوبة إلا أثناء القرن الماضي أي إبان التواجد الإستدماري الأوروبي في إفريقيا، والجدير بالذكر أن القارة تأثرت بمشكلة التوثيق بطريقتين أساسيتين، تتمثل أولهما في نقص فادح في مجال الآثار المكتوبة، وثانيهما في وجود فائض في مجال الذاكرة الفطرية للإنسان.⁽¹⁴⁵⁾ لأجل هذا لم تكن الوثيقة المكتوبة أداة وحيدة لاستخراج المعلومات والبناء عليها، لتشمل أي تعبير انساني آخر، وفي طليعتها التعبير الشفوي. مع الأخذ بعين الاعتبار ان الرواية الشفوية كطريقة في نقل الأخبار ليست جديدة، بل هي الطريقة الأولى والعميقة في النقل، ومن خلالها بدأ التدوين التاريخي

141 (0): عبد الله بن إبراهيم العسكر، "أهمية تدوين التاريخ الشفهي"، مجلة الدرعية، العددان 39-40، 2009، ص:1، منقول من الموقع

الإلكتروني (www.alukah.net/culture)

142(0): أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني امبراطورية مالي (1230-1430م)، المجمع الفقائي، أبو ظبي، 1999، ص: 39.

143(0): أحمد بن يغزر، "الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بين الإمكان والضوابط"، الحوار المتوسطي، ع 13-14، ديسمبر

2016، ص: 241.

144(0): منصف بكاي، أضواء على تاريخ إفريقيا، دار السبيل، الجزائر، 2009، ص: 9.

145(0): نفسه، ص ص: 14-15.

في الحضارات المكتوبة كلها. ونظيف إلى هذه الحقيقة البديهية أن الجديد في اعتماد الشفوية مصدرًا في الكتابة التاريخية العلمية الحديثة والمعاصرة، يكمن في مستجدات فكرية وذهنية ومعرفية أدركها وعي إنساني جديد بمعنى التاريخ. فالبحث فيما يحتزنه الإنسان الإفريقي خاصة فيما يحتزنه الإنسان من عواطف وذاكرة وقدرات، إفريقيًا على سبيل المثال لا الحصر، قارة لا ينطق بها المكتوب، ذلك لأن ذاكرة شعوبها تروي تاريخًا شفويًا.⁽¹⁴⁶⁾ بالتالي لا يمكننا كباحثين الغاء ذاكرة الانسان الإفريقي، والإكتفاء بما ورد في مصادر أوروبية دُست بها سموم عنصرية، فنحن لا نتوقع ممن يلقب بني جلدته في كتاباته بالبيض، ويلقب غيرهم بالسود، أن يقدم لنا حقائق خالية من الذاتية.

3. تدوين تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء اعتمادًا على الرواية الشفوية :

إن أولى محاولات تأريخ القارة الإفريقية عمومًا هي قديمة قدم بداية التاريخ المكتوب. فمؤرخو عالم البحر الأبيض المتوسط القديم اتخذوا كلهم إطارًا معتمدًا هو مجموع العالم المعروف، لكن كان يشل الجزء الشمالي فقط،⁽¹⁴⁷⁾ الذي مصر وحوض النيل والمغرب القديم. لكن جنوب تلك الأقاليم، فكان من المعتقد أن ليس له تاريخ.⁽¹⁴⁸⁾ لكن على عكس ذلك تمامًا، فحيث ما وجد الإنسان وجد تاريخ. ذلك أن طبيعة المنطقة حتمت على مؤرخي العالم القديم كهيرودوت، منتون، بلين القديم وسترابون وغيرهم، عدم التوجه جنوب الصحراء، بالتالي لم يسردوا -لا سيما يخص إفريقيا الغربية- إلا باختصار عن رحلات قليلة أو زحف عبر الصحراء أو أسفار بحرية على سواحل المحيط الأطلسي. أما فيما يخص الجهة الشرقية، كان لها أساس أكثر جدية، إذ من المحقق أن تجار البحر الأبيض المتوسط وعلى الأقل تجار الإسكندرية، قد نشروا التجارة على شواطئ البحر الأحمر، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد "رحلة بحر إيريتيريا سنة 100م" و"آثار كلوديوس بطليموس حوالي 150م" كانت المصادر الرئيسية للتاريخ القديم في المنطقة.⁽¹⁴⁹⁾ أما في العصر الوسيط فقد كان المؤرخون العرب أكثر اطلاعًا من غيرهم، ففي عصرهم كان استخدام الجمل قد سهل الربط بين ضفتي الصحراء، مما سهل التجارة التي خدمت الجميع، فمن جهة ساهمت في نمو الحراك الاقتصادي في المنطقة عن طريق تبادل السلع، ومن جهة أخرى ساهمت في نشر الإسلام بالمنطقة. وكان التاجر آنذاك بمثابة داعية، ومعلم ومؤلف في الوقت ذاته. صحيح أن اتصال التجار العرب كان قبل الإسلام بالمنطقة،⁽¹⁵⁰⁾ غير أن نتج عن هذا الاحتكاك الثقافي كان أكبر بعد انتشار الإسلام، فقد أنتج ذلك مصادر تتحدث عن المنطقة باللغة العربية، اعتمدت على الملاحظات الشخصية والروايات الشفوية المحلية. فالآثار التي قدمها المسعودي، البكري، الإدريسي، ياقوت الحموي، الحسن الوزان، ابن حوقل وابن بطوطة وغيرهم لها أعظم الأهمية في حماية الذاكرة الإفريقية.

¹⁴⁶: مجموعة مؤلفين، التاريخ الشفوي، ج2، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسة، بيروت، 2015، ص: 15.

¹⁴⁷: ج. د. فاج، "تطوير التدوين التاريخي في إفريقيا"، تاريخ إفريقيا العام، اليونسكو، مع1، 1983، ص: 41.

¹⁴⁸: دونالد ويدز، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، مصر، 2001، ص: 7.

¹⁴⁹: فاج، نفس المرجع، ص: 42.

¹⁵⁰: عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، جامعة قان يونس، بنغازي، 1998، ص: 100.

كذلك ظهر مؤرخون محليون ساهموا في حفظ تراثهم من الاندثار، أشهرهم عبد الرحمان السعدي، محمود كعت، وأحمد بابا التمبكتي. (151) أما الجيل المعاصر من الكتاب الأفارقة، فقد اعتمدوا على الرواية الشفوية لأسباب لا علاقة لها بالبحث العلمي. حيث أن الأفارقة بعد استقلالهم الذي كان معظمه في ستينيات القرن العشرين، تحفزوا لضرورة كتابة تاريخهم الوطني مهما بلغت التنازلات المنهجية، فاختلفت هكذا كل الاعتبارات الموضوعية بمشكل الهوية الإفريقية والبحث عن الذات، فاندفعوا بقوة للدفاع ومناصرة المعتقدين بأهمية الرواية الشفوية ووظفو كل الأساليب العلمية والأدبية المؤثرة لاستقطاب جمهور الباحثين واقناعهم بموقفهم منها. (152)

4. أهمية الرواية الشفوية في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء:

على وجه العموم، تبدأ أهمية الرواية الشفوية من عجز الحصيلة الوثائقية "الوثائق الرسمية المكتوبة" في إكمال إعادة بناء الحادثة التاريخية. سواء لعدم وجود الوثيقة أصلاً أو لضياعها أو لصعوبة التأكد من صحتها، أو لعدم كفايتها التفسيرية... وفي هذه الحالة يقف المنهج التاريخي الصارم -الذي يأخذ بالمبدأ القائم على أنه لا تاريخ بدون وثائق- عاجزاً غير قادر على الاستمرار لأنه سيتناقض مع مبدئه. (153) تتجلى أهمية الرواية الشفوية كمصدر تاريخي أساسي وأصيل للبحث عن الماضي الإفريقي، في أنها فرضت نفسها، أمام شح المصادر المكتوبة قبل الفترة الاستعمارية التي مرت بها القارة. حيث كان لهذه الفترة دور أساسي في تثبيط تطورها ناهيك عن السخرية الأوربية من هذا المورد الثقافي، وتقزيمه وحصره في مجال السحر والشعوذة.

إن المورد الشفوي هو المكمل الأساسي للنصوص والوثائق الأركيولوجية، لكونها تقوم بتغطية ما يعتريها ويشوبها من نقائص، كما بإمكانها أن تقدم وجهة نظر مغايرة. وهي أيضا مصدر تاريخي أساسي يمكن اعتماده في إعادة بناء ماضي الشعوب التي تفتقر لرصيد مكتوب، كشعوب إفريقيا التي تقدر الكلمة وتعيش في عالم الإشارة وفي مضمون الذاكرة الجماعية. ثم أن هذا الاهتمام الذي أولاه الأفارقة للرواية الشفوية، جعل أحد الباحثين وهو هامباتي با (Hambati Ba) يرى أنه كلما مات شيخ أفريقي ضاعت مكتبة تاريخية لا تعوض. كما أنها حسب جون فان سينا J Vancina يرى أنها تساعد المؤرخ على فهم الأحداث من الداخل. (154) إن الرواية الشفوية تعطي اهتماما بالغا للطبقات المنسية في المجتمع، فنادرا ما يذكر التاريخ بطولات جندي، لكنه يزخر بطولات وأساطير كبار القادة. تلك الفئة المنسية في التاريخ لا تتذكرها سوى الرواية الشفوية، غير أن هذا الاسترسال في الوقوف عند أهميتها لا يجنبنا الوقوف عند بعض سلبياتها.

151) عبد القادر زيادية، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د-ت-ط، ص:

152) الشكري، المرجع السابق، ص: 39.

153) بن يفرز، المرجع السابق، ص: 241.

154) الحسين عماري، " جذور اسهام الرواية الشفوية والأركيولوجيا في كتابة تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء"، مجلة كان التاريخية، ع 14، ديسمبر

6- سلبيات الاعتماد المطلق على الرواية الشفوية:

مع أن ذاكرة الإنسان الإفريقي لا يقهرها الزمن،⁽¹⁵⁵⁾ وبالرغم من الأهمية التي تكتسيها الرواية الشفوية كمصدر من مصادر تاريخ إفريقيا، غير أن استغلالها يطرح إشكالية منهجية وموضوعية.⁽¹⁵⁶⁾ ثم أن الإستطراد في الوقوف عند أهمية الرواية الشفوية لا يزيدنا إلا إصراراً ذلك أن آراء المؤرخين تضاربت حول هذا المصدر. إن المؤرخ في حوار مستمر بين الماضي والحاضر، عن طريق إعادة تفسير الماضي مع إلقاء الضوء على صغائر الأمور ثم الوصول إلى نتائج موضوعية بناءً على أدلة.⁽¹⁵⁷⁾ وتتجلى أولى سلبيات الموروث الشفوي في إشكالية الذاتية والموضوعية، ففي النهاية ليست كل المرويّات الشفوية من قبيل التاريخ، ثم أن هناك من يرى أنها تهم المؤرخ لا لكي يثبت الحوادث كما وقعت، وإنما للتعرف على الصورة التي كانت في أذهان الناس إزاء هذه الأحداث، مما جعل الكثير من مؤرخي إفريقيا - قبل اقتناعهم بالاعتماد عليها كمصدر من المصادر التاريخية- يبدون تشكيكهم في قيمتها المصدرية ومدى مصداقيتها ويشترطون تعزيزها في مصدر آخر.⁽¹⁵⁸⁾ إن تداخل الأسطورة مع الرواية الشفوية، يصعب علينا الفصل بينها دون الرجوع إلى مصدر آخر، ثم أنها لا تؤطر الأحداث التي تذكرها بالبعدين " الزماني والمكاني"،⁽¹⁵⁹⁾ ذلك أنه من المعروف أن الحادثة التاريخية بدون إحداثياتها المكانية والزمانية لا تساوي ولا تقدم لنا شيئاً.

يتجلى مشكل الرواية الشفوية الأساسي في جمعها ثم استغلالها، بعد إخضاعها لنقد تاريخي بناء لاختيار الروايات التي من شأنها أن تشكل مصدراً للتاريخ. ولا شك أن استغلالاً من هذا النوع أو بهذا الشكل يتطلب تكويناً وعملاً ضخماً، ناهيك عن توفر المؤرخ على سمات وخصائص مميزة، من الصعب توفرها في أي كان. لذلك لا نستغرب إذا وجدنا تناقضاً في مواقف الباحثين بخصوص هذه النقطة. فهناك معارضون لفكرة الاعتماد على النص الشفهي كمصدر من المصادر التاريخية، ويركزون بالدرجة الأولى على النص المكتوب والحفريات. ويرون أنه في ظل غياب حجج مادية ملموسة ليس هناك تاريخ، لأن اعتماد المؤرخ على الرواية الشفوية من شأنه أن يقوده إلى مزالق.⁽¹⁶⁰⁾

خاتمة:

في الأخير نستخلص أن الموروث الشفوي الإفريقي قد فرض نفسه أمام غياب الشواهد المادية والوثائق الكتابية. فهي سند لا غنى لنا عنه، غير أن استغلالها يوقع المؤرخ في حيرة أخرى، ألا وهي وجوب التحلي بالفطنة والنزاهة

¹⁵⁵: الشكري، المرجع السابق، ص: 40.

¹⁵⁶: عماري، المرجع السابق، ص: 13.

¹⁵⁷: Arthur Marwick, *the new nature of history-knowledge- evidence- language*, Palgrave, Great Britain, 2001, p: 44.

¹⁵⁸: عماري، نفس المرجع، ص: 14.

¹⁵⁹: الشكري، نفس المرجع، ص: 40.

¹⁶⁰: عماري، نفس المرجع، ص: 14.

والموضوعية. فكما مكنتنا من التعرف على تاريخ بعض الشعوب الإفريقية التي لم تُعرف بها المصادر العربية، يمكنها الانزلاق بنا إلى تشويه صورة حضارات لا نعرفها.

يمكن اعتبار الرواية الشفوية ميزة إفريقية، تفتقر إليها الشعوب الأخرى. فمن غير الإنسان الإفريقي له مثل هذه الذاكرة التي حافظ عليها وتناقلها جيلاً عن جيل؟، ذلك لأنه مهما حاول الاستعمار الأوروبي طيلة قرون محو وطمس معالم الشخصية الإفريقية، لم ينجح. من هنا تنبع أكبر أهمية للموروث الشفوي الإفريقي، لكن قد آن الأوان لحفظه من الاندثار عن طريق تدوينه.

قائمة المراجع :

- بكاي، منصف ، أضواء على تاريخ إفريقيا، دار السبيل، الجزائر، 2009.
- مجموعة مؤلفين، التاريخ الشفوي، ج2، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسة، بيروت، 2015.
- الشكري، أحمد، الإسلام والمجتمع السوداني امبراطورية مالي (1230 - 1430م)،المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999.
- الفيتوري، عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، جامعة قان يونس، بنغازي، 1998.
- ويدز،دونالد،تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، مصر، 2007.
- زبادية، عبد القادر، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د-ت-ط.
- المقالات:
- فاج، ج،د، "تطوير التدوين التاريخي في إفريقيا"، تاريخ إفريقيا العام، اليونسكو، مج1، 1983.
- عماري، الحسين ، " جذور اسهام الرواية الشفوية والأركيولوجيا في كتابة تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء"، مجلة كان التاريخية، ع 14، ديسمبر 2011.
- العسكر، عبد الله بن إبراهيم ، "أهمية تدوينالتاريخالشفهي"، مجلة الدرعية، العددان39- 40، 2009، منقول من الموقع الالكتروني(www.alukah.net/culture)
- بن يغزر، أحمد، "الشهادة الشفوية كمصدر لتاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بين الإمكان والضوابط"، الحوار المتوسطي، ع 13-14، ديسمبر 2016.

Marwick,Arthur,the new nature of history-knowledge- evidence- language, Palgrave, Great Britain, 2001.